

الحلقة الواحدة والستون

أقوال المسيح

برنامج أنوار كاشفة

نرحب بك صديقي المستمع في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. يسرنا أن نتابع تقديم هذه السلسلة وهي تحت عنوان: «أقوال المسيح». لقد تكلم المخلص يسوع المسيح بأقوال عديدة مليئة بالحكمة، مما أثار إعجاب الناس من حوله، كما أكدت أيضاً على سلطانه الإلهي.

ماذا يكون موقفك مستمعي عندما يمددك البائع ويفرض عليك سعراً باهظاً؟ أو لا تعتبر ذلك نوعاً من الاستغلال والغش؟ كل منّا لا بد أن اختبر هذا الأمر في يوم ما، وأحس بالإهانة عندما علم أن البائع خدعه واستغله وأخذ منه سعراً فاحشاً على البضاعة التي اشتراها منه. ولعل الأدهى من ذلك هو أن يتم هذا الاستغلال أحياناً تحت شعار الدين أو في الأماكن التي تعتبر مقدسة. فيستغل البعض البسطاء من الناس ويفرضون عليهم أسعاراً باهظة، وهذا ما نراه يتكرر في كل زمان ومكان. ولم تكن الأوضاع في أيام المخلص المسيح لتختلف عن هذا الأمر.

يخبرنا البشير متى في الإنجيل المقدس عن حادثة حصلت لها علاقة بهذا الموضوع فنقرأ ما يلي: «وَدَخَلَ يَسُوعُ إِلَى هَيْكَلِ اللَّهِ وَأَخْرَجَ جَمِيعَ الَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ فِي الْهَيْكَلِ، وَقَلَبَ مَوَائِدَ الصَّيَّارِفَةِ وَكُرَاسِي بَاعَةِ الْحَمَامِ وَقَالَ لَهُمْ: «مَكْتُوبٌ: بَيْتِي بَيْتَ الصَّلَاةِ يُدْعَى. وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمُوهُ مَغَارَةً لُصُوصٍ!» (بشارة متى ٢١: ١٢-١٣).

وكتب البشير يوحنا قائلاً: «وَوَجَدَ - أي المخلص المسيح - فِي الْهَيْكَلِ الَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ بَقَرًا وَعِغْمًا وَحَمَامًا، وَالصَّيَّارِفَ جُلُوسًا. فَصَنَعَ سَوِطًا مِنْ حِبَالٍ وَطَرَدَ الْجَمِيعَ مِنَ الْهَيْكَلِ، أَلْعَنَّمَ وَالْبَقَرَ، وَكَبَّ دَرَاهِمَ الصَّيَّارِفِ وَقَلَبَ مَوَائِدَهُمْ. وَقَالَ لِبَاعَةِ الْحَمَامِ: «ارْفَعُوا هَذِهِ مِنْ هَهُنَا! لَا تَجْعَلُوا بَيْتَ أَبِي بَيْتَ تِجَارَةٍ!» (بشارة يوحنا ٢: ١٣-١٦).

إنها بالحق حادثة هامة حصلت ودونتها لنا كل البشائر الأربع، وهي تؤكد على مدى حرص المخلص المسيح على محاربة الاستغلال لاسيما في أماكن العبادة. سنتأمل أكثر بهذه الحادثة ومعانيها البليغة بعد لحظات فابقوا معنا.

مستمعي الكريم، من المعروف أن الهيكل في مدينة أورشليم بفلسطين، كان هو مكان العبادة الوحيد بالنسبة للشعب اليهودي في ذلك الزمان. وكان التجار والصيافة ينصبون خيامهم في الدار الخارجية من الهيكل، ويملاونه ببضائعهم وعملاتهم. وبما أنه كان على الذين يأتون إلى الهيكل تقديم الذبائح، لهذا كان التجار يبيعون الحيوانات من غنم وبقرة، وطيور الحمام بأسعار فاحشة. وكان الصيافة يستبدلون العملات الأجنبية بعملة الهيكل وهي العملة الوحيدة التي كان التجار يقبلون التعامل بها. وكثيراً ما كانوا يغشون الغريب الذين يجهلون سعر الصرف.

لم يكن التجار والصيافة غير أمراء فحسب، بل كانوا يستغلون أيضاً من جاءوا من مسافات بعيدة ليعبدوا الله. ولا شك أن هذا الأمر قد أغضب المخلص المسيح جداً، فصنع سوطاً من حبال وطرده «جَمِيعَ الَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ فِي الْهَيْكَلِ، وَقَلَبَ مَوَائِدَ الصَّيَافَةِ وَكَرَاسِيَّ بَاعَةِ الْحَمَامِ». ثم قال لهم: «مَكْتُوبٌ: بَيْتِي بَيْتَ الصَّلَاةِ يُدْعَى. وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمُوهُ مَغَارَةً لُصُوصٍ!» أجل لقد كان الهيكل في أورشليم هو بيت الله بقصد الصلاة والعبادة، وليس مكاناً للتجارة والاستغلال. ولهذا وبخهم المسيح بقوله لهم: أنتم جعلتموه مغارة لصوص، أي مكاناً يعبث به اللصوص من التجار والصيافة ويستغلون الناس.

هنا نجد موقف المسيح الواضح تجاه من يحاول استغلال عبادة الله لتحقيق أرباح مادية. وهذا مع الأسف ما نراه في كثير من الأحيان، لا سيما في أماكن العبادة، حيث يستغل البعض إقبال الناس الكثيف فيحاولون بيعهم وبأسعار باهظة التذكارات أو الايقونات أو أي شيء آخر، وكأن هذه الأمور تقربهم من الله.

وقد تكرر هذا الأمر عدة مرات في التاريخ مع الأسف. إلى حد أن الكنيسة الرسمية في زمن ما قد لجأت إلى بيع صكوك الغفران. أي أرادت أن تبيع بيوتاً في الجنة لمن يدفع مبلغاً كبيراً من المال. وهكذا يضمن لنفسه مكاناً في السماء عند موته. وهذا كله كان خداعاً وابتزازاً واضحاً للحصول على المال.

صديقي المستمع، لقد كان موقف المخلص يسوع المسيح واضحاً جداً تجاه استغلال الآخرين بشكل عام، وليس في أماكن العبادة فقط. لا بل قد حذر تلاميذه من الطمع. إذ قال لهم مرة: «انظروا وتحفظوا من الطمع، فإنه متى كان لأحدٍ كثيرٌ فليست حياته من أمواله» (بشارة لوقا ١٢: ١٥). أجل، إن حياة الإنسان لا تتوقف على ما يجمعه من أموال. وعندما يطمع المرء بالمزيد من المال بوسائل غير شريفة، وعن طريق استغلال الآخرين، فإن هذا لن يضمن له أن يعيش سنياً أطول. لأن حياة الإنسان لا بد أن تنتهي يوماً ما

بالرغم مما يملكه من أموال أو ممتلكات.

ولقد شبّه الرسول بولس الطّمع بعبادة الأوثان. فالطمّاع يكون عابداً للمال، ويصبح المال هو الإله الصّئم الذي يعبده. وهو ما حدّر منه أيضاً المخلّص المسيح عندما قال: «لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ، لِأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبْغِضَ الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الْآخَرَ، أَوْ يُلَازِمَ الْوَاحِدَ وَيَحْتَقِرَ الْآخَرَ. لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدِمُوا اللَّهَ وَالْمَالَ» (بشارة متى ٦: ٢٤).

نعم، إن المال هو سيّد قاسي يستعبد الإنسان الذي يركض وراءه ويطمع بالمزيد منه. ولهذا لا يستطيع المرء الادعاء أنه يعبد الله وفي نفس الوقت يطمع بالمزيد من المال. لأن عبادة الله يجب أن تكون لله وحده فقط، فلا يمكننا أن نعبد الله والمال في آن واحد كما ذكر المخلّص المسيح.

مستمعي الكريم، هل أنت من الذين يطمعون بالمزيد من المال؟ وهل تسعى إليه بكل الوسائل حتى ولو كانت غير شريفة؟ إن الله يستطيع أن يحررك من خطيئة الطمع كما يحررك من خطايا كثيرة. لهذا أتى المخلّص المسيح إلى عالمنا لكي يحرر الإنسان من عبودية الخطيئة وليجعله من أولاد الله. لقد مات المسيح على الصليب عوضاً عنّا نحن البشر الخاطئة، لكي يغفر خطايانا. ثم قام من بين الأموات غالباً منتصراً لكي يحررنا من عبودية الخطيئة بما فيها خطيئة الطمع واستغلال الآخرين، وليجعلنا من أولاد الله ويهبنا الحياة الأبدية. فهل تراك تؤمن بهذا المخلّص الفريد؟ فتحصل على كل هبات الله ونعمه.